قطوف من حياة علماء وشيوخ عرفتهم

بقلم أحمد الجوهري عبد الجواد

الشيخ محمد صفوت نور الدين

[1362 هـ / 1943 م – 1423 هـ / 2002 م]

حضرتُ مرَّاتٍ عديدةً خطبًا ومحاضراتٍ لفضيلة الشيخ محمد صفوت نور الدين رحمه الله تعالى.. فرأيتُ رجلاً جميل الخَلق سَمح الخُلُق، هادِئ الطباع ساكن النَّفس، بسَّام المحيَّا رَصين العِلم، بادي الصلاح ظاهِر الوقار، ملتزمَ المنهج واضِح الأسلوب، بارِع الحوار مرتَّب الأفكار.

كان الشيخ صفوت نور الدين رحمه الله يتكلَّم في هدوء المتأمِّل في غير عَجز أو شيخوخة؛ بل يدفعه إلى ذلك الغَوص في أعماق الكلام، يستخرج لآلِئه ودُرَره، ويبرز الآيات والبيِّنات على ما يشير إليه من كنوز.

وكان الشيخ الكبير رحمه الله رحمةً واسعة آيةً في هذا المجال، وأشهد لقد سمعتُ منه في محاضراته كشرح "حديث أَصحاب الغار" وغيره فوائدَ وعبرًا، أنبهرُ لها إلى اليوم بشدَّة، وقد مرَّ على هذا الحدَث 15 سنة!

ومثل ذلك يستطيع المرء قولَه في سلسلته الشهيرة "حفظُ اللهِ للدِّين"، وفي سائر إنتاج الرجل الثريّ.

وُلد الشيخ محمد صفوت نور الدين أحمد مرسي في العشرين من شهر يونيو لعام 1943م بقرية الملايقة، مركز بلبيس، إحدى مراكز محافظة الشرقيَّة في مصر، ونَشأ في أسرة متديّنة، وحفِظَ القرآنَ في صغره، رغم أنَّه لم يك أزهريًّا وقتها، وكذلك لم يَلتحق بالأزهر بعدها.

وقد كان عمُّه فضيلة الشيخ عبدالله أحمد مرسي من رجالات أنصار السنَّة المحمديَّة في ناحية بلبيس، ورائدَ الدَّعوة السلفيَّة فيها، وكذلك والده، وكان يترأَّس فرعَ جماعة أنصار السنة المحمديَّة بمدينة بلبيس فترةً، وكان يعمل بالتدريس وعُرف عنه الحزم والقيام على تربية الأجيال، فكان لهذا أثر في توجُّه الفتى "محمد" إلى فِكر الجماعة وهو في المرحلة الإعداديَّة.

وهناك لازَم دُعاتها وعلماءها واستفَاد منهم، ودرس العلومَ الشرعية على أيديهم؛ إذ يسَّر الله له من علمائها ودعاتها: فضيلةَ الشيخ محمد علي عبدالرحيم رئيس جمعيَّة أنصار السنة المحمديَّة، والعالِمَ الأزهري السلفيَّ الشهير الدكتور محمد خليل هرَّاس، صاحب الشروح المتميزة والتقييدات النَّافعة على كُتب شيخ الإسلام ابن تيميَّة، وفضيلة الشيخ العلاَّمة عبدالرحمن الوكيل، صاحب البيان الرَّصين والعلم الرَّزين، وفضيلة الشيخ عبدالرزاق عفيفي الذي تولَّى

منصـــبَ نائب رئيس هيئة كِبار العلماء بالمملكة العربيَّة الســعودية، إلى آخرين كُثُر من علماء أنصـــار الســنَّة المبارَكين، إضـــافة إلى معاصـــرته الكبار أمثال الشـــيوخ: محمد حامد، وجميل غازي، وغيرهما.

وبهذا جمع "محمد صـــفوت" العلمَ الشـــرعيَّ والمدنيَّ معًا، فإلى جانب العلوم الشـــرعية التي حصَّـــلها على أيدي هؤلاء النَّفر الكرام، فقد مضـــى في دراســـته المدنيَّة حتى وصـــل إلى كليَّة المعلمين، وحصل منها على شهادة البكالوريوس في العلوم والتربية في العام 1964م، واشتغل بهذا المؤهِّل في التدريس، وترقَّى في درجاته الوظيفية إلى أن أصـــبح "موجهًا أول" في تخصُّصه بوزارة التربية والتعليم المصرية.

جمع الشـــيخُ العِلمين لا كجمع عاديٍّ بل برَع فيهما، ولقَّح كلاًّ منهما بالآخر، فاجتمع لديه مزيج كـان لـه أثر واضـــح في كتـاباتـه التي زخرَت بهـا مجلَّـة التوحيد في ثلاثـة أبواب منهـا؛ "في الافتتاحية، وباب السنَّة، وباب الردِّ على أسئلة القرَّاء"، وكان للتدريس أثر في احتكاكه بالنشْء وتنمية خِبرته بطرائق التربية وإفادته حُسن التوجيه.

أذكر أنَّنا ونحن طلابٌ حزاوِرَة كنَّا نسـمع إلى شـيوخنا في القاهرة - أوائل ما وفدنا إليها طلابًا في جامعة الأزهر- فكنَّا نشـهد - كثيرًا - الصـراعَ الحامي بين بعضـهم في مسـائلَ مشـتهرة، بعضـها لا يزال يشـغل السـاحةَ إلى اليوم، فاتصـلنا على فضـيلة الشَّيخ رحمه الله في مكتبِه بمقرِّ جماعة أنصـــار الســـنَّة المحمديَّة نسـأله النُّصـحَ في ذلك، وكان الشـيخ يسـتقبل زوَّاره ويجيب مســـتفتيه عبر الهاتف يوم الأحد والأربعاء على ما أذكر، فكان ردُّ الشـــيخ الكريم علينا تربيةً تركَت أثرها فيَّ إلى اليوم وما زالت تجد منِّي اســـتجابة لها؛ إذ قال لي ولإخواني، وقد عرَّفناه بأنفسنا كطلاب في الجامعة الأزهرية، حريصين على تلقِّي العلم الشرعي على طريقة السَّلَف، وطرحنا بين يديه أسئلتَنا، فقال بعمقِ فِكره المعهود:

"لا يزال أهل العِلم يختلفون في مسـائل بينهم أخذًا وردًّا، والطالب الذكيُّ هو من يَسمع لشيوخه أَجمع ويعير اهتمامَه إلى كلِّ مفيد يقولونه، وليس مِن بين هذا المفيد أن يشـــغل نفسَـــه بالقيل والقال، فوصـــيَّتي إليكم أن تَســـتفيدوا - في جانب العلم - من كلِّ مَن يتحدَّث فيه بدليلٍ وفهم أصيل، وأمَّا الصراعات الجانبيَّة في بعض المسائل التي تُعتبر مسائل فرعيَّة قد وقع في مثلها الخلاف بين العلماء قديمًا وسيظل، فلا تَنشغلوا بها ولا تضيعوا أوقاتكم فيها".

كانت كلمات الشَّيخ الكريم تنطبع في فؤادي وأنا أسـمعها كحبَّات المطر التي صـادفَت أرضًـا هامدة فاهتزَّت وربَت.. والشيخ في مجال التربية صاحبُ باعٍ طويل يحتاج مَن يقف على تراثه ويستخرجه منه، ومن رسائله المعروفة: "التربية بين الأصالة والتجديد".

ولقد سعيتُ - يحملني الشوقُ - إلى لقاء العالِم الجليل في مكتبه بالمركز العام - قَوَلَة، عابدين - وأنا في مرحلة الجامعة مرَّتين؛ وشجعني على ذلك ما عُرف عن الشيخ رحمه الله و ما أراه من أدبه الجم، وتواضعِه الشديد، لكنِّي لم أوفَّق للقائه في كِلتيهما؛ بسبب سفره المتكرّر في رحلاتٍ للدعوة في الخارج.. فقد امتدَّ نشاطه الدَّعوي المبارَك إلى خارج مصر مشاركًا في المؤتمرات والندوات وإلقاء المحاضرات في هولندا وكندا وبلجيكا وغيرها من مختلف أنحاء العالم، ثمَّ توَّج ذلك النشاط الدعويَّ بافتتاح فرعٍ لأنصار السنَّة المحمديَّة في أمريكا.

لقد كان"الشيخ صفوت" يهتم بقضايا ومشاكل المسلمين في الغَرب اهتمامًا بالغًا، إلى جوار اهتمامه بنشر الدَّعوة في ربوع مِصر، وآثارُه في كلِّ ناحية منها شاهدة؛ يقول أحد تلامذته ومرافقيه - في إحدى رحلاته إلى أمريكا - وهو الشيخ محمد حسان: "لقد كنتُ أرى الشيخَ يَحمل مجلَّة التوحيد ويوزّعها بنفسه على المسلمين في الخارج؛ لشدَّة حِرصه على أن تصلهم دَعوة التوحيد الصافية النقيَّة"، وكانت همَّته في ذلك تُثير الإعجابَ وتدفع على الجدِّ والعمل، ولهذا يقول التلميذ الشيخ محمد حسان عن أستاذه الرَّاحل:

"واللهِ لقد كانت همَّتي تَعلو كلَّما جالستُ الشيخ وتتبعتُ أحوالَه، وكل طلاب الشيخ ومحبّيه يعلمون يقينًا أنَّه كان لا يعرف الكلَل والملَل؛ فمن مسجدٍ إلى مسجد، ومن بيتٍ إلى بيت، ليحلَّ مشكلة أو يصلِح بين متخاصمين".

وقال عنه الدكتور علي السالوس: "كان لي شَرف الاشتراك مع الفقيد في لقاءاتٍ ومؤتمرات داخل مصر وخارجها في أمريكا، فكان نِعْم المحاضِر، ونِعْم المناقِش ونِعم المجادِل بالحقِّ والتي هي أحسن، في سَمْت العلماء وتواضعهم وهدوئهم يتحدَّث ويناقِش ويجادِل، لم أره مرَّة يَجترئ على الفتيا بغير عِلم؛ بل دائمًا يُسند أقوالَه بالأدلَّة المعتبرة مستمسكًا بالكتاب والسنَّة، وما رأيتُه مرَّة يغضب لنفسه".

إنَّ آخر مؤتمر كان قبل وفاته رحمه الله في نُصرة قضايا الإسلام برياسته هو المؤتمر الذي عُقد بالمركز الدولي لدُعاة التوحيد والسنَّة بمسجد العزيز بالله، وقد انتهَت أعماله قَبل سفره إلى السعودية بيومين تقريبًا، وكان شِعار المؤتمر (القدس).. ولعلَّ في كتابه: "المسجد الأقصى ودعوة الرُّسل" برهانًا ثانيًا على تَحرُّق الرجل الكبير على قضايا المسلمين.

لقد كان العالِم الكبير رحمه الله مثالاً في الجلَد على طريق الدعوة، والحرصِ على الوصول بها وبلاغها، نحسبه والله تعالى حسيبه، ولا نزكِّي على الله أحدًا.

ولئن فاتني لقاؤه في مكتبه مرَّتين إلاَّ أنِّي عوَّضتُ مكان ذلك في لقاءين - غير محاضراته وخطبه الجماهيريَّة - انفردتُ به فيهما، فسلَّمتُ عليه وطرحتُ بعضَ الأسئلة بين يديه واستمعتُ

إلى أجوبة الرجل الحَكيم ومعها دعواته لي بالتوفيق في الحياة العِلميَّة والحياة العامَّة، ومع ذلك نُصحه المعهود بالخير ولزوم الاستقامة.. فوجدتُه كما عرفتُه بَاسِمَ الوَجه رحبَ الصدر، كثيرَ الودِّ ظاهرَ التواضع، ولمستُ شاهدًا على ما كنتُ سمعتُ من قول الشيخ لإخوانه: "إنَّ كلمة الرئيس العام ليست منصبًا علميًّا؛ وإنَّما هي ترتيب إداريٌّ لينتظم العمل بين أفراد الجماعة"، يريد بذلك أن يقول: نحن سواء، فلا تنظروا إلى المناصب والدَّرجات؛ وإنَّما ركِّزوا على العمل والإنجازات، ومِن ثَمَّ تطوَّرَت الدَّعوة في حياة العالِم الفاضل، وتوسَّعَت حتى شملَت أرجاء فسيحة وعددًا وفيرًا من قرى الأرض المصريَّة ومدنها.

ويقول عن ذلك الشيخ صالح السدلان: "الشيخ صفوت نور الدين سَابع رئيس لأنصار السنَّة المحمديَّة بمصر، ودامَت رئاسته لها ما يَزيد على عشرة أعوام، شهدَت الجماعةُ خلالها ازدهارًا غير مسبوق من التنظيم والعملِ المؤسَّس الناجِح، فساهَم مساهمةً فعَّالة في نَشر دعوة التوحيد في مصر والعالَم الإسلامي، وأَرسى قواعدَ الجماعة على المنهج السَّلَفي الصَّحيح منهجِ أهل السنَّة والجماعة في إطار ضوابط لم تتعارَض مع الحكومات ممَّا كَتب لدعوته الاستمرارَ والنجاح".

وبعد:

فحياةُ الشيخ مليئة بالعِظات والعِبَر، ولا تكفيها - أبدًا - هذه العُجالة للاستقصاء، لكن النَّصيحة الجديرة بالذِّكر والذِّكرى ما قاله الشيخُ نفسه - وكأنَّه يعني نفسَه -: "علينا أن نجتمع حول من بَقي من العلماء لطلَب علمهم، فلا نضيّع أعمارَهم ثمَّ نبكي عليهم بعد موتهم، وعلينا أن نسألَ عمَّن ورثَ علمَ مَن مات منهم، ولا نظن أنَّ العِلم مجرد نصٍّ محفوظ في الكتب؛ فإنَّ أهل الكتاب لم تَنفعهم كتبُهم التي بين أيديهم، فقد حرَّفوا بعضَها وأهملوا بقيَّتَها، فلم يَبق لهم من الدِّين شيء، ولا حول ولا قوة إلا بالله".

رحم الله فضيلةَ الشيخ محمد صفوت نور الدين مرسي رحمةً واسِعة، ذلك الرجل صاحِب الهمَّة العالية في الدَّعوة إلى الله، والذي اختارَ اللهُ لقاءه بعد صلاة الجمعة، والفراغ من العُمرة، في البلد الحرام، وصُلِّي عليه صلاة الجنازة بعد صلاة المغرب في الحرم الشريف، وكان ذلك في الثالث عشر من رجب 1423هـ.

فضيلة الشيخ المقرئ الدكتور عباس المصري

[1364هـ / 1945م - 1425هـ / 2004م]

ترجم الإمامُ البخاري لوالده إسماعيل رحمهما الله فقال: "سمعَ أبي من مالك بن أنس، ورأى حمادَ بنَ زيد، وصافح ابنَ المُبارك بكلتا يديه".

ولك أن تتأمَّل طويلاً في قوله: "ورأى حمادَ بنَ زيد، وصافح ابنَ المبارك بكلتا يديه"، لقد كان البخاري رحمه الله قادرًا على أن يَسرِدَ شيئًا مطوَّلاً من مناقب والده، وهي كثيرة؛ فقد طلب والدُه العلم وتضلَّع منه، حتى إنَّ المترجمين له ليُخبِرون أنه استوت له تجارة عريضة ذات ربحٍ دارٍّ وفيرٍ أقسم على أنه جميعه من حلال خالص ليس فيه أدنى شبهة، فإنه لما حضرته الوفاة دعا ابنه الإمام البخاري، وقال له: "يا بنيَّ، لقد تركتُ لك ألف ألف درهم - يعني مليون - ما أعلم درهمًا فيه شبهة"، ومثل هذا لا يستقيم إلا لمن تعلَّم العلم حتى جمع في قلبه شيئًا منه كثيرًا، لكن البخاري وهو ينتقي لوالده أفضلَ المناقب يَختصر ترجمته - حسبما يَقتضيه منهجه في التاريخ الكبير - فيقتصر على هؤلاء الكلمات:

"سمع أبي من مالك بن أنس...

ورأى حماد بن زيد...

وصافح ابن المبارك بكلتا يديه".

فقط، وهو شرفٌ في نظر أمير المؤمنين الإمام البخاري، فما بالك بمَن دونه؟!

كنتُ وأنا أعدُّ هذه القطوفَ عن حياة العلماء والشيوخ الذين عرفتُهم أقدِّم رجلاً وأؤخِّر أخرى في تضمينها ترجمةً لفضيلة شيخنا الدكتور المُقرئ عباس المصري رحمه الله تعالى؛ ذلك أني عرفتُ الرجلَ الكبيرَ في مرحلة متأخِّرة جدًّا من حياته المباركة، في لقاء عابرٍ جمعني به لدقائق، وسرعان ما غادَرَ لتمضي أيام بعد هذا اللقاء فيقرع أسماعَنا نبأ وفاتِه، وأنا بعدُ لا أقدِر الرجل قدرَه ولا أعرف حقه العلميَّ عن يقين، وما كان هنالك إلا حدسٌ وتخمينٌ من المُستمِع الشاب في المتحدّث الكبير أنه من العلماء؛ أدرك ذلك صاحبُنا الشابُّ بما خَبرَه من سمت أولي العلم والإقراء، فلقد كان الشيخ رحمه الله باديَ الصلاح، ظاهرَ الخشوع، واضحَ التواضُع، كثيرَ الذِّكر، تلوح في وجهه وروحه أماراتُ التُّقى وعلاماتُ الإحسان.

لقد شـــجَّعتني الكلماتُ التي قدمتها عن ترجمة الإمام البخاري لوالده، ودفعتني إلى كتابة هذه السطور عن الشيخ رحمه الله، وسوَّغ لي ذلك، أني سمعتُ الشيخ يتحدث بكلام الخير، ورأيته، وصافحته، وجالسته، وحياني، وحييتُه، رحمه الله رحمة واسعةً، فكانت تلك القطوف من حياته الزاهرة:

ولد "أبو محمد عباس مصطفى أنور إبراهيم المصري" بالقاهرة في 18 / شعبان / 1364هـ - الموافق 27 / 7 / 1945 م، وعاشَ حياةً عادية لا يميّزه فيها شـــيء عن غيره حتى بلغ الثلاثين من عمره، وفيها اشتعلت جذوة نشاطه الدِّيني فأقبل على كتاب الله تعالى وعكف عليه قراءة وحفظًا وإتقانًا فأنعم الله به عليه، وكان بعد إتمام الحفظ يفرِّغ من يومه أوقاتًا كثيرة لتثبيت الحفظ حتى صار من الحافظين المتقنين لكتاب الله.

ولم تقفْ به نفسُـــه الجادَّة وهمَّته العالية عند هذا الحد، فانطلق يروي ظمأها بكتاب الله فجالس أفاضِـلَ المُقرئين ليتلقَّى منهم كالشـيخ أحمد مصـطفى أبو الحسـن، والشـيخ أحمد عبدالعزيز الزيات، والشـيخ عبدالحكيم عبداللطيف، والشـيخ محمد عبدالحميد عبدالله، والشـيخ محمد عيد عابدين، وطار إلى فضيلة الشيخ بكري الطرابيشي عليه رحمة الله ليَقرَأ عليه في مدينة دمشق بسوريا، مرتين.

ولعَمرُ الله، إن هذه عزيمة قوية أن يتحقَّق مثل هذا الإنجاز في مثل هذه الســـن، وقبل هذا هو عطاء الله الوهاب على ما اطَّلع من نية عبده، فاصطفاه واجتَباه وحباه.

الْتحَقَ الشـاب "عباس المصـري" أول عهده بكلية الشـرطة وتخرَّج فيها وعُيِّن في أكاديميتها، وأثناء ذلك حصـــل على الماجســتير ثم الدكتوراه في الحقوق، ودرس في جامعات عدَّة، داخل مصـر وخارجها، إلا أن الرجلَ "المصـطفى" قد رغبتْ نفسـه عن ذلك كله، وتاقَت لتعليم كتاب الله وإقرائه، ففرَّغ نفسه لذلك تمامًا، وخلَّى مناصبَ الدنيا وراء ظهره، ومِن كلية الشرطة حيث يُعلِّم الأمن والانضباط انتقل إلى تدريس القرآن الكريم وضبْط القراءات، فشغَل القرآنُ - الذي درسـه محتسـبًا - كل حياته وملأ عليه جميع أوقاته، وقد شـهد له كل الذين شـرفهم الله بالقراءة عليه والجلوس بين يديه بالإتقان، إلى جوار صـــفات أهل القرآن الحسَـــنَة؛ الصـــبر، والذكر، والبذل، والكرم، والحفاظ على وقت العلم وطلابه، وعلوِّ الهمة، وتلك لعَمر الله صـــفات المحسنين، نسأل الله أن يكون الشيخ منهم وأن يُبوِّئه منازلهم.

كان "الشيخ عباس المصـري" رحمه الله مهمومًا بشؤون الأمة الإسلامية، ساعيًا في نصـرة قضـــيتها، باذلاً لها من وقته ونفســـه وماله، وقد كانت المرَّة التي التقيته فيها يتباحث مع بعض أهل الخير ممن يَقطنون في منطقة عشوائية داخل القاهرة؛ يريد أن يؤسِّس لهم مجمعًا إسلاميًّا

يقوم على جمعهم فيه لأداء الصـــلاة وتعلم الدين، ويجمع أبناءهم ونســـاءهم على حفظ القرآن والتنشئة الإسلامية الصحيحة.

ولقد كان رحمه الله يكره البدَع وما دخل الإسلام من غرائب ليست منه في شيء، وإن تشبَّث بها المسلمون وزعموها من الإسلام؛ أذكر أن أهلَ الحيِّ الذين قصدهم ليَبني هذا "الصرح الإسلامي" في منطقتهم - وقد أخبَرَهم بما ينوي فعله - سألوه أن يجعَل في خطته لبناء المجمع ذي الأدوار العشرة دورًا للمُناسبات يُقيمون فيها الأفراح ويتقبَّلون فيها التعزية، فرفض أشد الرفض، وقال: هذا ليس مِن الإسلام.

وهذه أخلاق رجلٍ يتسنَّن باتباع المصطفى صلى الله عليه وسلم، وكيف لا؟ وهو الذي أقدم قبل ذلك على تقديم استقالته إلى كلية الشرطة حتى يتمكّن من إطلاق لحيته والاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، ويربِّي أبناءه على ذلك، وقد كان.

لقد كان "الدكتور عباس المصري رحمه الله تعالى" من الأغنياء، لكنه مع ذلك كان من الزهّاد المعدود زهدهم في الغرائب والفرائد بين أهل عصره، وهذا هو الزهد الحقيقي؛ إذ هو يملك ويزهد فيما يَملِك، فالرجل الكبير الذي يَملك الفيلا ومزرعةً حولها اختار كلَّما ذهب إلى هناك أن يقيم في كوخ صغير في أطرافها، يتلو فيه القرآن بصوته النقي العذب، ويردِّد داخلَه ذكرَ الله الذي ما كان يفارق لسانه في كل الأحوال.

وكان "عباس المصري الأستاذ الجامعي، والشيخ المقرئ، والضابط الأكاديمي" متواضعًا شديد التواضع لطلابه، لا يستنكف أن يخدم ضيوفَه بأن يحملَ بنفسه - ومعه زوجُه الكريم - الطعامَ إليهم، وأن يَحملهم في سيارته غادين ورائحين.

وكان "فضيلة الشيخ المقرئ عباس المصري رحمه الله" يَسكُن إلى جوارنا في حي راقٍ من أحياء القاهرة - وهو حي مدينة نصر - وكان مسجدُه عامرًا بطائفتين من الناس: أهل التمدن، الحضريُّون، من الطبقة العُليا، من سكان المنطقة التي يقيم فيها، والأخرى القرويون البُسطاء الذين جاؤوا يسعَون على معايشِهم وسط هذه البيئة، وقدَّر الله لهم لُقْيا الشيخ رحمه الله وما أسعده من قدَر! وما أحلاها من لقيا!

ولقد رأيتُ شاهدًا من هؤلاء وهؤلاء ممَّن حباهم الله بمعرفة الشيخ والاحتكاك به، وأسعدهم الله بالجلوس معه على مائدة القرآن؛ اجتذبهم الشيخ إلى رحاب الكتاب الكريم بحسنِ بَيانِه، وطيب مَعشرِه، وجميل موعظته، وبشاشة وجهه، فأما المدنيُّ فلن تُخطئ عينك أن تراه اليوم ليلاً ونهارًا يُقرِئ المصريين والوافدين الراغبين في الحظوة بإجازة القرآن والارتباط بشرف الانتساب إلى أهله، ستراه في المسجد وغيره، يُقرئ، يبتغي بذلك الأجر والثواب من الله، وكم

من مدنيٍّ مثله قد تلقَّى القرآن عن "فضـــيلة الشـــيخ"، ولقَّاه غيره، فتلامذة الشـــيخ في جنبات الإسلام الواسعة كثرٌ بفضل الله، يُقرئون.

وتشـخَص أمام ناظري الآن صـورة رجلٍ ريفي بسـيط، خرج من الريف - من أرض الفيوم - وأتى إلى مصـــر - القاهرة - يبتغي فيها الرزق ويطلب فيها المعاش، ويســـوقه رزقُه يومًا إلى اللقاء بسـعادة الشـيخ حين تردَّد للصـلاة في مسـجده، فيَجذبه الشـيخ إلى حلقة القراءة بمَعهودِ بشاشته، ورفيع ذوقه، وعذب كلماته، فإذا هو لا يحسن أن يقرأ إلا شيئًا لا يقيم الأحرف فضلاً عن الكلمات والجُمَل، فيعكف الشيخ مع تلميذه الكبير "مهدي" ليُعلِّمه القراءة والكتابة في صـبر وأناة حتى اســـتطاع "الطالب العجوز" تلاوةَ القرآن ومع الخُلطة والدربة كان "حماي ووالد زوجتي الشـيخ عبدالمهدي" يقرأ القرآن قراءَة حسـنَة جميلة تسـمَعُها منه فتسـمع قراءة غضّـةً طريةً ليست بالهذر، ولكنها قراءة مَن يعي معاني الكلام ويتدبّره، ولقد أخذ عن شيخه الذي كان يختم القرآن في كل أسبوع عادته تلك، فكان ربما ختمه في أسبوع أو أكثر قليلاً، وهكذا استطاع "فضيلة شيخنا عباس المصري" أن يرتفِعَ بكل من لقيَه إلى القرآن وهمَّة أهل القرآن، وسل عن ذلك بوّابين ونجّارين وحدّادين، تلقاهم فتَلقى نور القرآن في وجوههم وكلماته في صـــدورهم، يعود الفضل - بعد الله – إلى "الشيخ عباس" الذي صبَرَ على تعليمهم وتلقينهم.

لم يترك "الشيخ عباس المصري" كتبًا أو مؤلَّفات، لكنه ترك نسخًا من الكتب والمؤلَّفات تتحرك بين الأحياء وتعمل على تزكية النفوس وتطهير القلوب وإنارة الأفئدة بنور القرآن، منهم مَن هو اليوم شيخ شيوخ الإقراء في أمريكا، وهو فضيلة شيخنا الدكتور وليد بن إدريس المنيسي حفظه الله، ومنهم من هو في المغرب كالشـــيخ الدكتور توفيق العبقري، ومنهم من هم في الســـعودية حين كان يعمل فيها أسـتاذًا بكلية الملك فهد الأمنية بالرياض، ومنهم مَن في ليبيا، فضـلاً عمن في مصـــر - وأوَّلهم أبناؤه، بنين وبنات - ومن كل بلاد الله كثير، جمعهم حول الشـــيخ علمُه ورفقُه الذي يصـل إلى إحسـانه بالمال على الفقراء من طلابه، فضـلاً عن بذله مكتبته للطلاب، وهي التي تحوي مخطوطات سـعى في شـرائها بأغلى الأثمان، يسـتعيرون منها ويُصـوِّرون ويقرؤون.

ومآثر الشـيخ كثيرة لا زال غالبها حبيس صـدور عارفيه ومحبّيه، وأكثر منهم تلامذته، وحق الشـيخ عليهم أن يبثُّوها في الطلاب والناس، وهو حق الدين أيضًـا، فقد ندَر في زماننا أن نرى أحدًا مثلَ الشـــيخ يجمع بين العلم والعمل، وكان تلميذه الوفيُّ شـــيخنا الدكتور وليد قد وعد في رثائه لشيخه أن يكتب ترجمةً وافية له، وهذه فرصة لنذكِّر شيخَنا فيُسعفنا بها.

وليس كثيرًا على الشيخ أن يقوم بعض طلابه بزيارةٍ إلى مَسجدِهِ والحيِّ الذي كان يقطن فيه؛ ليتواصل مع بقية طلابه ومحبيه ويجمع سيرته، فإن فعل فسوف يخرج بكثير جدًّا من المواقف وبالشمائل التي يُحتفى بها، فلا زالت ذِكرى الشيخ العَطِرة تملأ عبق المكان، ولا تزال أحاديث الناس عنه تُثري المجالس بطيب الثناء عليه، ولعلَّ الله استجاب بعض دعائه؛ إذ كان يقول: "اللهم اجعل لي لسانَ صدق في الآخرين".

في يوم الاثنين 16 من شوال لعام 1425 هـ - الموافق 29 - 11 - 2004 م استردَّ الله وديعتَه، وتَوفَّى عبدَه الصالح - نحسبه كذلك – "عباس مصطفى أنور إبراهيم المصري"، تُودِّعه دموعُ الصالحين، وتسفِك عليه من حبَّات قلوبها؛ أسفًا على كل لحظة مضتْ في غير صحبته، أو تأتي وهو فقيد كل أذنٍ واعية سمعتْ به، أو عين بصيرة رأته.

ومما قيل في رثائه:

حُزني وحزنُ أحبَّتي لا يوصفُ	**وغَدا جراحًا في فؤادِي يَنزفُ**
ودُموعيَ الحرَّى تَزيد توجُّعي	**ودموع غَيري للمُصابِ تُخفِّفُ**
أمضِي على وجهي أقولُ بحُرقةٍ	**وأنا بهمِّي شاردٌ متأسِّفُ**
هل وُدِّعَ الشَّيخُ حقًّا؟ ويحكم!	**هو مَن يعزُّ على الكِرامِ ويَشرُفُ!**
شيخٌ على نهج النبي محمدٍ	**بالحلم والأخلاق فينا يُعرَفُ**
باعَ الحياةَ بحُسنِها ونعيمِها	**ويزينُه زهدٌ بها وتقشف**

والحقيقة أني لا أعرف صاحبَ هذه الأبيات الجميلة إلا أنها ضُمِّنتْ في ترجمة للشيخ ذيلت باسم الكريمين: جابر جاد محمد، محمد صالح محمد، وهما مِن طلابه رحمه الله وكلمات الأبيات الرائقة كُتبت بقلم المحب، المفجوع بوفاة حبيبه الغالي، وحُقَّ في مثله التفجُّع!

فكيف ظنُّك برجلٍ على فراش الموت يمرِّضه الأطباء وهو لا يفتأ يقول: علاجي في الحور العين! ويكون آخر ما يقرأ عنده في إذاعة القرآن قوله تعالى :﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا *حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴾ [النبأ: 31، 32]، وتكون آخر أعماله من الدنيا الصلاة؛ فآخر شيء فعله "أنه دخل عليه وقتُ الصبح وهو في العناية المركَّزة، فطلب ترابًا فتيمَّم، وطلب أن يُدخِلوا عليه فضيلة شيخنا الدكتور محمد يُسري حفظه الله، فدخَل وصلى به الفجر في جماعة ثم حدَث التدهور والغيبوبة، فما أفاق منها إلى أن تُوفِّيَ" رحمه الله.

وحياة الشيخ مليئة بالعِبَر الظاهِرة، لمن أراد أن يعتبر، رحم الله فضيلة الشيخ عباس المصري رحمة واسعة، ورفع درجته في المهديين، وأخلف أمة الإسلام في علمائها خيرًا.

فضيلة الشيخ الدكتور محمد بكر إسماعيل

[1355هـ - 1936م / 1426هـ - 2006م]

عرَفَت أذناي فضيلةَ الشيخ الدكتور محمد بكر إسماعيل رحمه الله تعالى قبل أن تعرفه عيناي؛ ذلك أنَّا - أهل البيت - كنَّا نجتمع حول إذاعة القرآن الكريم لنسمع إجاباته عن أسئلة برنامج "بريد الإسلام"، أو مناقشاته في موضوعات الفِقه من خلال برنامج "موسوعة الفقه الإسلامي"، وغيرهما من برامج الإذاعة التي كانت تَحتفي بالشيخ الدكتور احتفاءً من نوع خاصٍّ، وقد كان الرجل موسوعيًّا بحقٍّ، فما كان يتكلَّم في فنٍّ إلاَّ ويبدع فيه، فعلى الرغم من أنَّه أستاذ بكلِّية الدراسات الإسلامية والعربيَّة في قسم التفسير وعلوم القرآن، إلا أنَّه كان يتحدَّث فيُمتع مستمعيه بكلِّ حديثٍ أو علمٍ يتكلَّم فيه، ولعلَّ هذا ما جعله يحتفظ بوجوده في مسامعنا كثيرًا؛ إذ يحضرنا في برامج إذاعة القرآن غالبَ أوقاتِ اليوم، على اختلافها، من إشراقة الصَّباح إلى حين الغروب.

وكذلك كان "سعادة الدكتور" متفنِّنًا في تآليفه وتصانيفه، كما هو متفنِّنٌ في دروسه وأحاديثه؛ فقد عرفَته ساحاتُ الجامعاتِ ومدرَّجاتُها مفسِّرًا، يُطيِّب القاعات بمحاضراته العطِرة التي جمع خلاصاتِها في كتبه: "دراسات في علوم القرآن، والبيان فيأحكام القرآن، وأمثال القرآن، وغيرها"، وفي القمَّة من أعماله في هذا المجال كتابه الماتع: "خلاصة التفسير"، وبهذا عرفَته المكتبة الإسلاميَّة مفسِّرًا.

وكذلك عرف "الشيخَ" شبابُ الدَّعوة وأبناؤها فقيهًا؛ وذلك من خلال كتابه القيِّم: "الفقه الواضح من الكتاب والسنَّة"، وقد نحا فيه إلى التوسُّط في الاختيار من المذاهب الأربعة، ولم يجنَح إلى أحدها فيميِّزه على إخوته، وآثرَ فيه التأصيلَ على أساسٍ من الدليل القرآنيِّ والنَّبويِّ في غير حيفٍ أو تأويل، بلغةٍ سهلة سَلسة، مع ترتيبٍ جيِّد وعرضٍ متقن.

وقد رأيتُ "الفقهَ الواضح" في طبعته الأولى وقرأتُه قبل أن أَلقى الشيخ؛ كان عند بعض إخواني فأتحفني به استعارةً فقرأتُه، وليس "الفقه الواضح" هو الكتاب الوحيد من بين كتب الشَّيخ وتراثه في مجال الفِقه الإسلامي، فهنالِك أيضًا: "القواعد الفقهيَّة بين الأصالة والتوجيه"، مجلد جمَع فيه الشيخ (182) قاعدة مشروحة شرحًا وافيًا، لا مخلاً ولا مملاًّ، وفتاواه "بين السائل والفقيه"، وكتاب في أصول الفقه، وغيرها.

وقد غاص المتفنِّن "محمد بكر إسماعيل" في أعماق التاريخ الإسلاميّ والسيرة النبويَّة، فاستخرج منهما لآلئ ودررًا رصَّعها للراغبين في كتبه ذات الخطر: "رجال أحبَّهم الرسولُ وبشَّرهم بالجنة"، و"نساء لهنَّ شأن في الإسلام"، و"قصص القرآن"، و"قصص الأنبياء"...، وغيرها من العناوين التي تنبئ عن تبحُّر الرجل الكبير في دراسة التاريخ الإسلامي والخِبرة بأحداث السِّيرة وحياة الصَّحب الكرام.

كما درس "الدكتور إسماعيل" السنَّةَ النبويَّةَ وأخرج خلاصَة رحلته معها في كتب أتحفَت القرَّاء وتلقَّوها بالقبول، أمثال: "من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم"، و"أسماء الله الحسنى، آثارها وأسرارها"، وغيرها.

وهكذا ألَّف الشيخ محمد بكر إسماعيل رحمه الله رحمة واسعة وصنَّف في جميع العلوم الإسلامية؛ في التفسير، والحديث، والفِقه، والتاريخ الإسلامي، حتى كَتب في اللغة والبلاغة، وقد كان الشيخ رحمه الله أعلن عن عزمه العملَ على تصنيف كتابٍ في كلِّ علمٍ من العلوم الشرعيَّة واللغويَّة، بأسلوبٍ عصريٍّ سهلٍ يخلو من الغرابة والتعقيد والحشوِ والتطويل، ويصلح للتدريس في المعاهد والمساجِد وغيرها، بحيث لا يَستعصي فهمه على العامَّة ولا يستغني عنه الخاصَّة، وقد وفَّى أجزل الله مثوبتَه بما وعد.

♦ ♦ ♦

وفي هذه الفترة - فترة الدراسة التأسيسية - والتي قضيتُها في القرية، لم أكن رأيتُ الشيخَ المبارَك الذي أحبَّه فؤادي، وتعلَّقَت به نفسي وتاقَت لرؤيته جدًّا حتى صارت ترسم له في مخيلتها صورًا جميلة متعدِّدة لما يكون عليه شكله، ويبدو فيه سَمْته ومَظهره، كلُّ ذلك اعتمادًا منها على الخيال! وكنت أسمع أنَّ فضيلة الشيخ تستضيفه برامجُ "التلفاز" في حلقاتٍ، لكن لم يكن إلى مشاهدتها من سبيل؛ إذ كان الوالد حفظه الله تعالى، ولا يزال، يرفض دخولَ التلفاز إلى بيتنا، ولم يكن لي من عِلم بمواعيد هذه البرامج حتى أتمكَّن من مشاهدتها عند غيرنا، لكنِّي لمَّا سافرتُ إلى القاهرة رأيتُه في الجامعة، وجالستُه، وتعرَّفتُ على كثير من أخباره، وهأنذا أوافيك - عزيزي القارئ - ببعضها في هذه السطور:

ولد الطِّفل "محمد" في صعيد مصر، بل في أقصى الصَّعيد حيث تكاد الأرض المصريَّة تلاصق أرض السودان، وكانتا أرضًا واحدة سياسيًّا، ولا زالتا عربيًّا وإسلاميًّا، وفي قرية المحاميد مركز إدفو بمحافظة أسوان؛ حيث يعيش "بكر إسماعيل" والد محمد، كان مسقط رأس "محمد" ونشأتُه عام 1355 هجرية، الموافق لعام 1936 ميلادية، وهناك حفظ القرآن الكريم

- كعادة الناس في ذلك الزَّمان، وفي كلِّ زمان يَحتفظ أهلُه بالواجبات الإسلاميَّة الحسنَة الفاضلة، ويتحلَّون بالخصال والعادات الجميلة الطيِّبة - وذلك في سنٍّ مبكرة.

وكانت نشأة "محمد" أزهريَّة، وترعرع في مراحل الأزهر المختلفة، حتى استقرَّ به المقام في الجامع الأزهر بالقاهرة والتحق بكليَّة أصول الدِّين ليتخرَّج فيها، ثمَّ يحصل على الماجستير، فالدكتوراه في قسم التفسير وعلوم القرآن، عن رسالته التي حملَت عنوان "مقاصد التشريع الأسري من خلال سورتَي الطلاق والتحريم"، وكان أن حصل عليها بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف الأولى.

انتظم الدكتور "محمد" مدرِّسًا للتفسير وعلوم القرآن الكريم في جامعة الأزهر بكليَّة الدراسات الإسلاميَّة والعربيَّة، وتدرَّج في سلك هيئة التدريس حتى وصل إلى درجة أستاذٍ بالكليَّة، وهناك التقيتُ الدكتور وحضرتُ له وسعدَت روحي بلقياه، وإن لم تشبع من عَذْب حديثه ومَعين بيانه.

♦ ♦ ♦

عرفَت الجامعة "محمد بكر إسماعيل" إذًا مدرِّسًا ومحاضِرًا أكاديميًّا، لكن الرجل المليء لم يكن ليكتفي بما يبثُّه من علمٍ بين الطلاب - وهم كُثر جدًّا - لتبقى جهوده حبيسة أسوار الجامعة!

إنَّه لم يفعلها وهو طالبٌ يتقفَّر العِلمَ في مساجد مصر، ويطلبه في مدارسها المختلفة، ويجتهد في تتبُّعه هنا وهناك، يتلمَّس مظانَّ حضور الشيوخ ويبحث عن دروسهم وحلقاتهم!

يحدِّثني شيخُنا الفقيه الأصوليُّ عبدالخالق خلاف حفظه الله فيقول: سمعتُ الشيخ محمد بكر إسماعيل رحمه الله يقول: "لو كنتُ اكتفيتُ وقت الطلَب بما نُلقَّاه في الجامعة، ما كنتُ حصَّلتُ شيئًا من العلم؛ فإنَّ الجامعة لا تعطي العلوم وإنما تعطي مفاتيحَها، بل كنتُ أنا وزملائي المتعطِّشون للعلم نَخرج نطوف على حلقات العلم الكثيرة في القاهرة، في مساجدها ومدارِسها سواء، ومن الشيوخ من كان يدرِّسنا في بيته، نذهب إليه في منزله يختصُّنا بالرِّعاية؛ لِما يرى من حِرصنا على الطلَب".

ومن ثمَّ خرج "الدكتور بكر" إلى المساجد والمدارس خارجَ أسوار الجامعة وبعيدًا عن قاعات الدرس العلميِّ، حيث لا يتقيَّد بمنهج دراسيٍّ، ولا بكتاب مدرسيٍّ، ولا بأسلوب نوعيٍّ، ولا بطلابٍ معيَّنين، أو زمن معيَّن؛ إنما أراد أن يُلقي علمَه إلى النَّاس، جميعِ النَّاس، مَن تُهيِّئُه ظروفه أن يدرس ومن لم يكن كذلك، من كان يحضر له بالجامعة وأراد أن يَستزيد ومن لم يكن كذلك، من كان في سنِّ وطور الطلَب أو فوق ذلك، خرج "الدكتور بكر" يدعو إلى الله، ويعلِّم كتابَ الله لكلِّ من يرغب في ذلك ويُقبل عليه من عبادِ الله.

وفي حياة الطالب والأستاذ "محمد بكر إسماعيل" عِظةٌ وعِبرةٌ من خلال هذين الموقفين، فيجدر بنا أن نتوقَّف أمامهما متأمِّلين:

فلله كم ضاعَت من أعمارٍ على طلاَّبٍ ظنوا العلم كلَّ العلم والتحصيل كلَّ التحصيل في دراسة الجامعة؛ يحضرون لأساتذتهم فيها صباح كلِّ يوم حتى الظَّهيرة - هذا إن حضروا - ثمَّ يذهبون بعد ذلك إلى مخادعهم، وهكذا كلَّ يوم، دواليك، حتى ينتهي العام، وينقضـــي عام بعد عام، وما يحصِّـله الطالب من خلال حضـور المحاضـرات إضـافة إلى الكتاب المقرَّر يضـعه في ورقة الإجابة آخر العام، ويحصِّـل درجات النجاح أو حتى التفوُّق ظانًّا بذا أنَّه يحصِّـل العلمَ ويُحسـب في عداد طلاَّبه، والمسكين يخادِع نفسه، والحال كما وصف الشيخُ عبدالفتاح أبو غدَّة رحمه الله في معرض الحديث عن رحلات السلَف لطلب العلم، يقول:

"فوازِن - رعاك الله - بين الدِّراســـة التي أثمرَتْها هذه الرحلات التي عركَت الطلاب الرَّاحلين عركًا طويلاً، وبين دراسة طلاَّب جامعاتنا اليوم؛ يدرسون فيها أربعَ سنوات، وأغلبهم يدرسون دراسـةً صـحفيَّة فرديَّة، لا حضـور ولا سـماع، ولا مناقشـة ولا اقتناع، ولا تطاعم في الأخلاق ولا تأسِّـي، ولا تصـحيح لأخطائهم ولا تصـويب ولا تشـذيب لمسـالكهم، ويتسـقَّطون المباحث المظنونة السؤال من مقرراتهم (المختصرة)، ثمَّ يسعون إلى تلخيص تلك المقررات، ثمَّ يسعون إلى إســقاط البحوث غير الهامَّة من المقروءات، بتلطُّفهم وتملُّقهم لبعض الأســاتذة، فيجدون ما يسرُّهم وإنْ كان يضرهم، وبذلك يفرحون.

وبعد ذلك يتعالَون بضـــخامة الألقاب، مع فراغ الوطاب، ويوســـعون الدَّعاوى العريضـــة، ويجهِّلون العلماءَ الأصلاء بآرائهم الهشَّة البتراء، وينصرون الأقوالَ الشاذَّة لتجانسها مع عِلمهم وفهمهم، ويناهضـون القواعد المسـتقرَّة، والأصـول الراسـخة المتوارثة، ولم يقعدوا مقاعدَ العلم والعلماء، ولم يتذوَّقوا بصارة التحصيل عند القدماء! ولكنهم عند أنفسهم أعلم من السابقين!

ويشــهد المراقِب للحال العلميَّة اليوم :كثرة متزايدة في الجامعيِّين والجامعات، وفقرًا متزايدًا في العلم وأهله، وضحالة في الفهم والمعرفة، ونقصًا كبيرًا مشهودًا في العمل بالعلم! وهذه مصيبة من أدهى المصـــائب! والله المرجوُّ أن يُلهم المنوط بهم أمور التعليم في البلاد الإســـلاميَّة أن يتبصَّروا بالأمر، ويتداركوا هذا الخطر قبل تأصُّله وإزمانه، واستفحال آثاره.

ثمَّ يقول: ولا أتحدَّث طويلاً عن المبتعثين والراحلين اليوم من شبابنا، إلى بلاد الغرب والشَّرق من بلاد الكفَّار والأعداء للإســـلام وأهله، فإنَّ الناجي من براثِن مكايدهم الخفيَّة والظاهرة في العقيدة والخُلق والتفكير والسـلوكِ قليل، وكم من أبنائنا وشـبابنا مَن وقع في حبائلهم، وذهب في سُبلهم، ورضـيهم قادَة وسـادة، ونزع - بالتالي - من ديار الإسـلام إليهم، وتوطن بلادَهم مسكنًا

ودارًا، واختارهم على أهله أهلاً وجارًا، وهو يظنُّ بنفسه أنَّه يحسن صنعًا، نعوذ بالله من الحَور بعد الكَور، ومن الكفر بعد الإيمان"؛ إلى آخر كلامه رحمه الله في كتابه الرائع "صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل"، حريٌّ أن يُقرأ ويتأمَّل.

لقد ضرب الطالب "محمد بكر إسماعيل" المثلَ الذي يُحتذى في هذا المجال، بما سبق أن أوردناه عليك من مقالِه عن حاله أيام الطلَب والتحصيل.

وأمَّا عِظتنا الثَّانية، فهي في حياة "محمد – الدكتور" الذي لم يَكتف بتدريسه طلابَ الجامعة، وخرج ليطوف المساجدَ والمعاهد ودور العلم ومنتديات النَّاس؛ يعلِّم الكتاب والسنَّة في جدٍّ واجتهاد ومثابرةٍ، وظلَّ هذا دأبه إلى آخر حياته - وهو الذي قارب السَّبعين من العمر - في عزيمة يعجز عنها الشابُّ القويُّ الفتيُّ، أذكر أنِّي صحبتُ الشيخَ رحمه الله تعالى يومًا من كليَّة الدراسات الإسلاميَّة والعربيَّة - وكانت وقتئذٍ بجوار الجامع الأزهر في منطقة الدرَّاسة قبل أن تُنقل إلى مقرِّ الجامعة الجديد في مدينة نصر - فألقى الشيخُ محاضراته بالجامعة، وسألتُه في النِّهاية عن غايته، فقال لي بأنه ذاهبٌ بعد ذلك ليلقي درسًا في مسجدٍ بشارع بورسعيد في حي الموسكي بعد صلاة العصر، ووقف صاحبُنا مع أستاذه يسأل ويَستمع للجواب، وتدخَّلَت جموعُ الطلاب هي الأخرى وألقَوا على الشيخ الكريم أسئلتَهم والشيخ يجيب، وهو واقف على قدميه من بَعدِ يوم عملٍ مستمرٍّ من الصباح إلى ما بعد الظهر، وأدرك الإرهاقُ صاحبَنا فاستلَّ نفسَه من بين الحاضرين وذهب فاشترى ما يسدُّ به جوعَه، فأكل وشربَ، ثمَّ ذهب إلى المسجد المقصود، وهو يظنُّ ظنًّا راجحًا لديه أنَّ الشيخ لن يَحضر؛ إذ كيف يراه يَفعل وهو ما يظنه فرغ من أسئلة السائلين حتى الساعة! ثمَّ أين طعامه وشرابه وراحته؟! وإذ كان ذلك كذلك فإنَّ صاحبنا منَّى نفسَه براحةٍ في المسجد حتى المغرب أو بالعودة إلى المدينة الجامعيَّة حيث مسكنه ليستريح، وأُذِّن للعصر وأقيمَت الصلاة، فكان الشيخ الدكتور محمد بكر إسماعيل هو إمام المصلِّين فيها، بزيِّه الأزهريِّ، كما كان عليه، لم يتغيَّر، وبعد الصلاة تقدَّم الشيخ إلى كرسيِّ الدرس، فألقى درسَه، وكان في الفِقه، ولم يَختم الدرسَ إلاَّ بعد ساعة ونصف من مبدئه، فاستمرَّ يتحدَّث في جزالة أسلوب، وحُسن عرض، وفصاحة لسان، وتأصيل معلومة، وفي نهاية الدَّرس ختم بخاتمته المعهودة؛ فوضع العمامةَ الأزهرية من فوق رأسه وهو يتمثَّل شِعر سُحَيْم بن وَثِيل الرِّياحيِّ أحد بني حِمْيَريٍّ إذ يقول:

أنا ابنُ جَلا وطَلاَّع الثَّنايا ♦♦♦ متَى أضَعِ العِمامةَ تَعرِفُوني

ويضحك الجالسون ويقومون للسَّلام على الشيخ؛ ليصافحوه ويسألوه، ثمَّ يودِّعوه، وتقدَّم صاحبنا فسلَّم على شيخه مع المسلِّمين وانتظر حتى فرغ فخرجَ معه إلى عتبة باب المسجد ظانًّا أنَّ

الشيخَ سيقصد إلى بيته في حدائق القبَّة، لكنَّ الشيخ كان في طريقه إلى درسٍ جديد في منطقة المقطَّم!

فلله هي من همَّة، ولله هو من مثابرٍ! بمثل هذا يُنصر الدِّين، وتُنشر الدَّعوة، ويُعلَّم الخير، ويُبث العلم في النَّاس، فأين من ذلك كثرةٌ من أساتذتنا المحسنين المجيدين المتقنين في العِلم - نشهد لهم بهذا وفوق هذا - ومع ذلك لا نراهم إلاَّ في قاعات الدَّرس بين طلابهم في الجامعة؟!

إنَّ في سيرة هذا الشيخ - ويدرِك الصغيرُ والكبير ما وضع الله له من القبول في الأرض والذِّكر الحسَن على الألسنة - عظةً وعبرةً لكلِّ متأمِّل ومتَّعظٍ.

كان لفضيلة الشيخ الدكتور محمد بكر إسماعيل باعٌ كبير في مجال الدَّعوة إلى الله على مستوى مصر والعالَم الإسلامي؛ من خلال عمله أستاذًا بعدد من الجامعات العربيَّة في مصر والسعوديَّة وغيرها، ومن خلال إذاعة القرآن الكريم التي أثراها بالعديد من البرامج والمشاركات الإذاعيَّة، ومن خلال القنوات الفضائيَّة بعد ذلك، ومن خلال محاضراته ومجالس دروسه العامَّة، ومن خلال كتبه ومصنَّفاته التي وَضع الله لها القبولَ، فله ما يربو على ثمانين مؤلَّفًا، ومن خلال طلاَّبه في كلِّ هذه البلاد ممَّن تعلَّموا على يديه مباشرة أو عبر وسائل الاتصال المختلفة.

♦ ♦ ♦

لقد رأيتُ الدكتور "محمد بكر إسماعيل" رحمه الله أوَّلَ مرَّة في كليَّته "كلية الدراسات الإسلامية والعربيَّة" بالدرَّاسة، وكنتُ اتصلتُ على هاتفه المنزليِّ أسأله عن مكان وجوده غدًا، فأخبرني بالمكان والوقتِ والمناسبة، فذهبتُ إليه ولشدِّ عجبي ممَّا رأيتُ؛ فلقد رأيتُ الدكتور الآن واقعًا - وأنا الذي رسمتُ له صورًا عديدة في مخيَّلتي قبل أن ألقاه - لكنِّي ما تصوَّرتُ قطُّ بأن عينَي الشيخ متعَبتين إلى درجة أنَّه لا يستطيع القراءة بهما من كتاب! وما كان فيهما من صلاح لتبصران أكثر من موطئ القدَم أو أبعد قليلاً؛ ولذلك اتَّخذ الشيخُ قارئًا يقرأ له ويطالِع معه ويكتب ما يمليه عليه، فسبحان مَن وضع تِلك الهمَّة التي جاء منها هذا الإنجاز في بدَنِ من كان يَستعين بغيره في القراءة والاطلاع، فبم يَعتذر ذَوو التقصير المبصرون؟!

وتتردَّد على مسامعي الآن كلمةُ شيخنا عبدالخالق خلاف حفظه الله وهو يقصُّ عليَّ رحلتَه مع فضيلة الدكتور في المملكة أيَّام كان معارًا إليها للتدريس بالجامعة، فيقول: "صحبتُ الشيخَ الدكتور محمد بكر إسماعيل رحمه الله وجالستُه أربعَ سنين؛ يَستقبلني في بيته ستة أيام في الأسبوع؛ أقرأُ عليه وأطالِع بين يديه، فأشهد لقد رأيتُ رجلاً مُلئَ علمًا، حتى إني كنتُ أقول لنفسي: هل يكون عالمًا من علماء الجنِّ لا عالمًا عاديًّا؟"!

♦ ♦ ♦

تذكِّرنا كلمةُ الشيخ "خلاف" عن شيخه: "وجالستُه أربع سنين؛ يستقبلني في بيته ستَّة أيام في الأسبوع" بكلمته هو عن أيام الطلَب، فيما سبق معنا؛ إذ يقول: "ومن الشيوخ من كان يدرِّسنا في بيته، نذهب إليه في منزله، يختصُّنا بالرعاية؛ لِما يرى من حرصنا على الطلَب".

لقد تربَّى الشيخ "بكر" على أيدي شيوخه، وكما رآهم يَبذلون من أنفسهم للطلاَّب فعَل هو الآخر! وهذا يذكِّرني بموقفٍ سمعتُه منه رحمه الله قصَّه عليَّ وأنا معه ننزل على درج السلَّم في الكلِّية يقول: "كما تفعل مع أساتذتك سَيفعل معك طلاَّبُك، إنْ إحسانًا أو إساءة"، ثمَّ استقبل يقصُّ: كنتُ وأنا في الكليَّة في مِثل سنِّك أتردَّد على أحد شيوخي في بيته أُراجع معه بعضَ الكتب، وكنتُ أعلم أنَّه يحبُّ نوعًا من القهوة، فكنتُ كلَّما ذهبتُ إليه أشتري هذا النَّوع من القهوة معي، ولا أغادر بيتَه حتى أصنعها له بيدي ويشربها، ثمَّ مضَت سنون ونسيتُ ذلك الأمر، حتى أتاني في بيتي طالِب من الطلاب وكان يُراجع معي رسالةَ الماجستير ودخل عليَّ يومًا ومعه هذا النَّوع من القهوة وهو يقول: قد علمتُ أنَّك تحبُّه فاشتريتُه لك، فقلتُ له: ضعه عندك، فإذا به يقول لي: لا، ليس قبل أن أصنعها لك بيدي وتشربَ منها! وتذكَّرتُ حينها موقفي الأول مع أستاذي، فكنتُ أشرب القهوة التي صنعها الطالب وأنا أتساءل:

كيف لهذا الطالب أن يعرف بأنِّي تحسَّستُ ما يحبُّه أستاذي وجلبتُه وصنعتُه بيديَّ وسقيتُه إيَّاه، فيفعل مثلي تمامًا؟!

ثمَّ جاوبتُ نفسي قائلاً: لا شكَّ أنَّه جزاء العمَل؛ فإنَّه يكون من جنسه، فمَن يعمل خيرًا يلقه.

♦ ♦ ♦

كان فضيلة شيخنا الدكتور "محمد بكر إسماعيل" من الحريصين جدًّا على وحدة الصفِّ بين العاملين للإسلام، نظريًّا؛ يتكلَّم بذلك ويحثُّ عليه، وعمَليًّا؛ تربطه بالعديد من العلماء صلاتٌ قويَّةٌ، في ذات الوقت الذي كنَّا نرى بين أولئك العلماء ومَن يقتدون بهم خلافاتٍ ومشاكساتٍ!

ولقد كان الشيخ رحمه الله سلفيَّ العقيدة، منهجيَّ الطريقة، بحَّاثة دؤوبًا، معلِّمًا، مربِّيًا، غيورًا على الدِّين، ذا عشرةٍ طيبة، ولقاءٍ ودود، وعاطفةٍ جيَّاشةٍ، وتواضعٍ عجيب.

ولكلِّ واحدة من هذه العِبارات شواهد وقصص وأحوال من حياة الشيخ الكريم، عسى الله تعالى أن ييسِّر لحديثٍ آخر عنه نستطرد فيه إلى بيان ذلك، في مناسبةٍ لعلَّها تكون قريبة.

♦ ♦ ♦

وفي ظهر يوم الخميس ثالث أيام عيد الأضحى المبارك من عام 1426 هـــ - الموافق للحادي عشـر من يناير من عام 2006 م، كَتب الله ختامَ هذه الحياة الطيّبة، وكان ختامها مسـكًا زادَها طيبًا؛ إذ شـــاء الله أن تفيض نفسُ العالِم الكبير، وهو في الركعة الثانية من صـــلاة الظهر، أثناء ســـجوده بين يدي الله تعالى، ويَحكي من كان بجواره في الصـــفِّ أنَّه قرأ قولَه تعالى :﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ *ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِـــيَةً مَرْضِـــيَّةً *فَادْخُلِي فِي عِبَادِي *وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: 27 – 30].

ورَكع وسجدَ وما قام من سَجدته.

رحم الله شيخَنا الدكتور محمد بكر إسماعيل، وتقبَّله في الصَّالحين، ورفع مقامَه في عِلِّيِّين

فضيلة الشيخ الدكتور عبدالبديع أبو هاشم

[1380هـ / 1960م - 1432هـ / 2011م]

إذا أردتُ أن أصف فضيلةَ شيخنا الدكتور عبدالبديع أبو هاشم رحمه الله تعالى في جملةٍ واحدةٍ، فسوف أقول:

كان رحمه الله شمسًا، والدُّعاةُ من حوله كواكب، إذا بدَت لم يبدُ منهنَّ كوكبٌ! ففضيلة الشيخ - عليه سحائبُ الرَّحمة - صاحبُ أثرٍ عظيمٍ في الدَّعوة إلى الله تعالى في القاهرة خاصَّة، ومصر عامَّة كتأثيرٍ مباشرٍ، وغيرها من بلدانِ العالَم الإسلاميّ كتأثيرٍ غير مباشر؛ من خلال طلاَّبه الدَّارسين لديه من أكاديميين وغيرهم.

ولئن كان المسجد "العُمَريُّ" - مسجدُ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه الذي كان الشيخُ يؤدِّي فيه خطبةَ الجمعة ودروسَ العلم وسائرَ أنشِطة الدَّعوة - يقع من حيث المكان بحيّ العرب من منطقة عين شمس بالقاهرة؛ فإنَّ أنوار هذا المسجد المبارَكة قد أضاءَت جنباتِ المحروسة، وشعَّ الضوءُ من هذه الجنبات إلى حيث ينير الطريقَ أمام السالكين في كثيرٍ من بلدان العالم، ممَّن يرون في هذا الرَّجل العظيم قدوةً طيّبة، ومَثلاً أعلى يُحتذى؛ فاختطُّوا لأنفسهم خطَّته في البيان، وارتضَوا طريقته في البلاغ؛ تلك الخطَّة هي خطَّة تفهيم القرآن، وتِلك الطريقة هي العمل بذلك التفهيم حتى يحصِّلوا الغايةَ من هذا الفهم؛ وهي تخريج أجيالٍ تؤمن بأنَّ خلاصَ هذه الأمَّة من مشكلاتها أجمع هو في الاستمساك بالكِتاب الكريم والاهتداءِ بهدي النبيِّ الأمين صلى الله عليه وسلم، ويوم يحصل هذا فسيتمثَّل هذا الدِّين واقعًا حيًّا في سموِّ أخلاق أَتباعه، وكريم معاملاتهم، وحُسن سلوكيَّاتهم.

كذلك كانت نشأة الشيخ الكريم في بِيئة القرآن، فتخرَّج فيها مثالاً ونموذجًا يُقتدى به في أخلاقه ومعاملاته وسلوكه، وكذلك رأى أن تكون نشأة الأجيال اللاحقة بِه؛ إذ هي الطريق الذي يَراه إلى رِفعة هذا الدِّين.

نشأ "عبدالبديع" في حجر والده فضيلة الشيخ العلاَّمة: "أبو هاشم محمد علي النوري" محفِّظ القرآن الكريم، ومعلِّم التجويد، ومقرِئ القراءات العشر، ومفتِّش العلوم الشرعيَّة بالمعاهد الأزهرية، وصاحب الصوت النَّدي بالقرآن الكريم؛ وصاحب مكتبةٍ عامرة بالتصانيف النَّافعة، فكانت بدايةً مبشِّرةً تنبئ عن مستقبلٍ كريمٍ لـ "عبدالبديع"، لا سيَّما وقد رأى من أمامه نجمًا يتهادى، خرج هو الآخر من نفس الحِجر؛ هو أخوه فضيلة الشيخ الدكتور محمد أبو هاشم

النوري، أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكليَّة أصول الدين - الزَّقازيق، في الجامعة الأزهريَّة، وأنجمًا أخرى من هذه الأسرة الكريمة نشأَت في رِحاب القرآن؛ فحفظَت ألفاظَه وحروفه، وتعلَّمَت آدابَه وحدوده، وتربَّت على عِبره ومواعظه، في "كتَّاب القرية"، وكان قيِّم "الكتَّاب" والدهم الكريم.

إذًا كانت نشأة "عبدالبديع" - الذي وُلد في يوم الاثنين 16 من جمادى الآخرة لسنة 1380 هـ الموافق 5/ 12/ 1960 م بقرية القرين من أعمال محافظة الشرقيَّة - نشأةً إسلاميَّة قرآنيَّة، يظلِّلها أبوه "الشيخ المقرئ"، ويحوطها إخوتُه "القرَّاء الحفَظة" بالرعاية والعناية.

التحق "عبدالبديع" بالتعليم وتدرَّج في مراحله المختلفة، فحصل على الشهادة الابتدائيَّة الأزهرية من جمعيَّة المحافظة على القرآن الكريم، والابتدائية العامَّة عام 1972 م من مدرسة الجلاء بالقرين، ثمَّ انتقل إلى مركز فاقوس ليلتحق بالمعهد الإعدادي الثانوي الأزهري، وأتمَّ المرحلةَ الثانوية عام 1979 م، ومَنَّ الله عليه فكان الأولَ على القسم الأدبي، ثمَّ انتقل إلى القاهرة والتحقَ بكليَّة أصول الدِّين جامعة الأزهر، وتخرَّج فيها عام ١٩٨٣م بتقدير عام "جيِّد جدًّا مع مرتبة الشرَف"، وهكذا قطع مراحلَ التعليم بتميُّزٍ ملحوظٍ بين أقرانه، قاده إلى تميُّزٍ مستمرٍّ في طريق الدعوة إلى الله.

ويتذكَّر "الشيخ عبدالبديع" هذه المراحل الدراسيَّة؛ فيذكر أنَّ أعظم أثرٍ طبعَته في فؤاده وتركَته في طِباعه هو "أخلاق" معلِّميه و"آداب" مربِّيه، الذين رزقه الله بهم في أيَّامه تِلك؛ فمن أول الأستاذ "سيد" الذي درَّسه في المرحلة الأوليَّة، إلى الدكتور أحمد أبو السعادات الذي درَّسه في المرحلة الجامعيَّة، ومَن بينهما من الشيوخ والمدرِّسين، يتذكرهم "الشيخ" جميعًا، ويثني عليهم، ويستغفر لهم، ثمَّ يجمل أفضل ما استفاده منهم في عِبارةٍ تستحقُّ منَّا غاية التأمُّل؛ إذ يقول: "استفدتُ من أساتذتي هؤلاء الأخلاقَ، والآدابَ، والالتزام العَملي".

فهو هنا يؤثِر ذِكر الجانب العملي والتطبيقي على الإفادة من الدُّروس العِلمية النَّظرية؛ لأنَّه يرى الأُولى هي الغاية المقصودة، وما الثَّانية إلاَّ وسيلة إليها أو أداة.

إنَّها القضيَّة التي شغلَت بال "فضيلة الشيخ" وفِكره، وبذل لأجلها وقتَه ومالَه وجهده، قضيَّة الأدب والسلوك، أن يتحوَّل هذا الدِّين في حياة المؤمنين به إلى واقع.

لقد كان "الشيخ عبدالبديع" - بحقٍّ - نموذجًا رائعًا للدَّاعية الذي يقوم على دعوته حقَّ قيامها؛ فهو عارِف بغايته، ومحدِّد لأهدافه، ومدرِك لقدراته، ومستوعِب لوسائله وأدواته، وخبير بطريقِه؛ ولهذا وصل - بشهادة الكثيرين - إلى تَحقيق كثير جدًّا ممَّا كان يأمله ويهدف إليه.

♦ ♦ ♦

عرفتُ فضيلةَ الشيخ الدكتور "عبدالبديع أبو هاشم" رحمه الله بآثاره قبل أن أُعاين شخصَه الكريم؛ فحين وفدتُ إلى القاهرة للدِّراسة في الجامعة الأزهريَّة كان طلاب كليَّتي - كلية الدعوة والثقافة الإسلاميَّة - يؤمُّون المصلِّين ويخطبون في المساجد الموجودة في محيط الجامعة، وكنتُ أفعل الأمرَ ذاته بأحد هذه المساجد، فرأيتُ من روَّاده حرصًا دائمًا على حضور درس الشيخ "عبدالبديع أبو هاشم" يوم الثلاثاء من كلِّ أسبوع، ثمَّ في رمضان، لا سيَّما الاعتكاف، ورأيتُ فيهم حبًّا للشيخ رحمه الله تعالى، جعل ذِكره بالخير على ألسنتهم كلَّ ساعة وفي كلِّ موقف، ممَّا كان له الأثر الكبير في دَفعي إلى زيارة الشيخ رحمه الله، والصلاة وراءه، والجلوس في درسه، لأرى - أنا - بعد ذلك أنَّ ما يقوله هؤلاء الإخوة عن الشيخ وجهودِه العظيمة في الدَّعوة دون واقِع الشيخ بكثير، مهما بالَغوا في أقوالهم وأوصافهم.

تنبئك بذلك نظرةٌ إلى آثار الشيخ التي أسَّسها وأقامَها وشيَّدها، في المسجد والمعهد والمكتبة والدورات إلى آخر المناشط الدعويَّة التي لا تُخطئها العين هناك، إضافةً إلى الأمور الاعتياديَّة من الإمامة والخطب والدروس والفتاوى والمجلَّة إلى آخر أعمال هذا المسجد المبارَك الذي علا شأنُه وارتفع، وكثرَت خدماتُه في طريق الدعوة والهداية.

لقد رأيتُ رجلاً الدعوةُ عنده تعني الحياة، وبشهادة أحد خواصِّه، يقول: "ربَّما قصَّر في راحته وصحته لأجل الدَّعوة في سبيل الله عزَّ وجل..."، ثمَّ يقول: "فما رأيتُ محبًّا للدَّعوة مثلَه، حتى أذكر أنَّه خرج يومًا من مستشفى "المقاولون العرب" إلى أحد معاهد إعداد الدُّعاة قبل مروره على البيت، ناهيك أنَّه كان يَقطع البلاد والمحافظات تلبيةً لدعوة درسٍ هنا أو محاضرة هناك، وكان قول الله جل وعلا :﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ [فصلت: 33] آية تمثل له أمرًا، فكنتَ تسمعه في قراءتها أو في تفسيرها فتشعرُ وكأنه يتذوَّقها تذوُّقًا غير عادي، حتى وصل به الأمرُ إلى أن كان الموت في ميدان الدَّعوة مَطلبًا عنده وغاية يَسعى لتحقيقها، رأيتُ ذلك بعيني في أكثر من موضع ومَوطن، ولله الحمد والمنَّة أن وفَّقه اللهُ إليها؛ ممَّا يدلُّ على صِدقه في طلبها".

وقد بارَك الله للشيخ في أعماله الكثيرة، وحفظ الجهدَ الذي بذله - رحمة الله عليه - بجندٍ كرامٍ من إخوانه وطلاَّبه، الذين عاوَنوه عليها في حياته، وقاموا عليها بعد مماته.

♦ ♦ ♦

لقد سعى الشيخ "عبدالبديع أبو هاشم" رحمه الله على مدار ربع قرن أو يزيد بالدَّعوة إلى الله سعيًا حثيثًا؛ لنشر دِين الله وإعلاء كلمته، وبثِّ الدعوة في الإخوة والعامَّة على سواء، وبذل في سبيل ذلك تضحيَّات لا يقدرها أحدٌ قدرَها؛ من مالٍ ووقت وجهد وغيره، وقد نتصوَّر بعضَ هذا السعي إذا علمنا أنَّ الشيخ رحمه الله لمَّا توفِّي قام بأعماله الدعويَّة في المسجد والمعهد التابع له (9) من أفاضل العلماء، فضلاً عمَّن يقوم مقامه من المديرين فيما كان هو يتولَّى إدارته!

لقد تركتَ - يا شيخنا - فراغًا كبيرًا يتعاون هؤلاء جميعًا على سدِّه والقيامِ مكانكم فيه، ولئن استطاعوا، فمن يسدُّ فراغَ القلوب التي تشتاق إلى رؤيتك، وتُجتَذب كلَّ لحظة توقًا إلى صحبتك؟!

يا رفيقَ الصِّبا ... أين عهدٌ مضى؟
أين ما كان مِن ... وصْلِنا والهوى؟
رُبَّ ليلٍ على ... حُلْكِه قد غشى
قد دعَونا به ... وأطلْنا الدُّعا
وبكَينا به ... ثمَّ زِدْنا البُكا
وسكَبنا معًا ... أدمعًا في الدجى
ونهارٍ على ... طوله والظّما
قد صَبرْنا له ... ورجونا الجزا
وحفِظّنا معًا ... سورة الأنبيا
وسهِرنا على ... سُنّة المصطفى
في صحيح البخا ... ريِّ قلبًا وعى
وعلِمنا الهُدى ... ودعَينا الورى
وندمنا على ... لهوِ عمرٍ مضى
يا رفيقَ الصِّبا ... كنتَ نِعمَ الفتى!
كنتَ نبعًا صَفَا ... ومَعينًا رَوى
يا رفيقَ الصِّبا ... كنتَ نعمَ الفتى!
كنتَ مرعى الهوى ... وملاذَ المُنى
ثمّ ضاقَ الفضَا ... حينَ حَقَّ القضا

وهكذا من الرِّجال مَن هو فردٌ بأمَّة، ولا نزكِّيه على الله، نحسبه كذلك والله حسيبه، فرحمك الله، يا من أتعَبتَ بعدَك - في بلوغ شأوك، وبذلِ مثل جهدك - كلَّ الدُّعاة.

♦ ♦ ♦

لقد كان أفضل ميزات فضيلة شيخنا أبي محمد عبدالبديع أبو هاشم رحمه الله تعالى "بساطته"؛ فهو متواضِع في مقاله، متواضِع في حاله، متواضِع في مَطالبه، متواضِع في سائر أموره.

فهو حين يتحدَّث يُؤثِر استعمالَ أقرب ألفاظ اللُّغة العربية الفصحى، في خطبه ومحاضراته ودروسه؛ المسموعة منها والمرئيَّة، حتى حين يفسِّر القرآن الكريم؛ يتحدَّث بأسلوب سهلٍ عَذب واضحٍ قريبٍ.

وهو حين يتعامل مع النَّاس يفضِّل المرونةَ وعدم الكلفة، ولا يستحضر مناصِبه ولا درجاته، ولا يَستعمل جاهَه ولا صِيته، يشهد بذلك الذين جاوروه، فضلاً عن جميع مَن عرفوه؛ ولهذا من رأى حال الناس في محبَّته تعجَّب، حتى إنَّ بعضَهم - بعد وفاته - لم يستطع دخولَ المسجد بعد غياب شيخهم عنه إلى شهورٍ من رحيله.

وهو متواضع في مَطالبه؛ ولك - عزيزي القارئ - أن تعلَم بكثرة العروض التي جاءَته إعارة إلى بلدان عربيَّة وغيرها، وهي عروض مغرِية يؤمِّلها الكثيرون ويرجون من ورائها الغِنى والثراء، فرفضها "فضيلةُ الشيخ" جميعها، واختار أن يَبقى لدعوته وأسرَته؛ إذ كان يَرى في استمرار الدَّعوة وتماسُك الأسرة فريضةً لا يسعه التفريط فيها، وقد قام الشيخُ عليهما حقَّ القيام، فكانت دعوته مستمرَّة صاعدة تشقُّ طريقَها بين الصخور، وتتغلَّب على العقبات؛ معتادةً وغير معتادةٍ، طبيعيةً وغير طبيعيةٍ.

وكذلك استمرَّ في أُسرته يحوط أفرادَها - بنين وبنات - بالرِّعاية والعِناية، يربِّيهم على أدب القرآن الكريم وأخلاقِ النبيِّ العظيم صلى الله عليه وسلم، فكان نتاج ذلك ترابطًا أسريًّا، وتعاملاً إسلاميًّا، وسلوكًا نبويًّا، في أخلاقٍ شهد لهم بها القريبُ والبعيد.

إنَّ مظاهر الحياة التي أغرَت كثيرين، أو أجبرَتهم على ما لا يريدون، أو اضطر إليها غيرُ الشيخ لأسباب قاهِرة - قد عافى الله الشيخَ منها، ولقد كان ذلك لبساطته المعهودة في حياته وتواضع مطالِبه، حتى إنَّه تعامل بها مع أصهاره، فاكتفى بمقالة الرسول صلى الله عليه وسلم: ((إذا جاءكم من تَرضَون دينَه وخُلقه، فزوِّجوه...))، دون تطلُّع منه إلى زينةٍ أو متاعٍ.

وهكذا كان الشيخ رحمه الله زاهدًا حقيقيًّا في الحياة الدنيا، ولا يرجو إلاَّ الله والدارَ الآخرة جزاء من الله.

رحم الله الشيخَ وجعل مثواه الفردوس.

♦ ♦ ♦

كان الشيخ عبدالبديع رحمه الله صاحبَ وجهٍ مُنيرٍ، وفِكْرٍ هادئ، وسلوكٍ قويم، ومعشَرٍ طيّب، ولسانٍ عفٍّ، وأدبٍ جمٍّ.

ولكَم حدَثَت صولات وجولات - في المنطقة التي يقيم فيها الشيخُ وما حولها، بل في القاهرة كلِّها - تولَّى كِبرَها بعضُ الدُّعاة والشيوخ، فأثارَت فتنةً بل فِتنًا، وعمَّ بسببها البلاء، ووقعَت من جرَّائها الفُرقة بين صفوف الإخوة، وتعطَّلَت لأجلها الدَّعوة في المساجد، وصار الملتزمون إلى الحكايات، وتحوَّلوا من العمل الجادِّ إلى نَقل القيل والقال والحُكمِ على الأشخاص والجمعيَّات والهيئات...، إلى آخر هذه الأمراض التي تنتج عن: "التفرُّغ للنظر في أعمال العاملين، وتتبُّع سقطات العلماء وكبوات الفرسان"، فأين كان الشيخ عبدالبديع رحمه الله تعالى من هذه الأمور التي استغرقَت (10) سنوات أو تزيد؟!

يجيب "الشاغلون": كان فضيلة الشيخ عبدالبديع أبو هاشم رحمه الله أعقل النَّاس وأفطنَهم في هذه المسألة؛ فلم تشغله عن واجبه، ولم تغيّره عن خطَّته، ولم تحرفه عن وجهته، فاستمرَّ على عمله في التدريس والتعليم، والتربية والتأديب، يمضي إلى غايته، فلما انقشعَت السحابة، وأدبرَت الفتنة، وولَّت كان "عبدالبديع أبو هاشم" يحرز أهدافَه في العمل لدين الله، حين راوح الجميعُ في أماكنهم، "الشاغلون" و"المشغولون بهم" على سواء، ومنهم مَن أخلى مكانَه في الدَّعوة إلى الأبد، نسأل الله أن يردَّهم إلى ساحة الدَّعوة وعمل الخير ردًّا جميلاً.

ولم يعدِم الرجلُ العالِم - في هذه الأثناء - أن ينصحَ لإخوانه الدُّعاة بكلماتٍ يسيرةٍ تحمل عفَّةَ نفسه وأدبَ شخصه، في غير تشنيعٍ أو تقريع، فلمَّا لم يُسمع لقوله تحوَّل إلى مدعوّيه من إخوانه وطلابه يجمعهم على فِقه الكتاب العظيم وتدبُّره، ويزكّي به أرواحَهم وسلوكهم، وكان ركنًا آوى إليه - في ذلك الوقت - مَن كتب الله لهم النَّجاة.

وإنَّ في ذلك لذكرى تتجدَّد فيها العِظة لليوم والغد.

♦ ♦ ♦

عمل الشيخ "عبدالبديع أبو هاشم" أوَّل أمره مدرّسًا للغة العربيَّة والدِّين بمدرسة عبدالله الشرقاوي بالقرين - شرقيَّة، لمدَّة سنة، جاءه بعدها (1985م) التكليف من جامعة الأزهر بالعمل معيدًا في الكليَّة التي تخرَّج فيها "أصول الدين - القاهرة"، وحيث سلَك هذا الخطَّ في التدريس الجامعيّ فقد أقبل على عدَّته الجامعيَّة يستكملها؛ ففي عام (1986م) انتهى من الدراسات العليا - تمهيدي الماجستير - بقِسم التفسير وعلوم القرآن، وفي عام (1987م) سجَّل

موضوعَه لرسالة التخصص - الماجستير - بعنوان "الاتباع في ميزان القرآن"، وحصل على درجة الماجستير عام (1989م)، بتقدير امتياز.

كما حصل على درجة العالمية - الدكتوراه - عام (1993م) عن رسالته القيّمة: "أقوال أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه في التفسير - جمع ودراسة"، بتقدير امتياز مع مَرتبة الشرف؛ ليصير مدرِّسًا بالكليَّة، فأستاذًا مساعدًا، ثمَّ أستاذًا.

ولم تغيّر الأستاذيَّةُ الجامعيَّة "عبدالبديع أبو هاشم" أبدًا، لا في اهتمامه بالدَّعوة وبذله لها وتضحياته في سبيلها، ولا في بَساطَته وتواضعه لخلق الله أجمع؛ بل بقي يبذل للنَّاس نداه ووقتَه وعلمَه، في تواضعٍ جمٍّ وأدبٍ رفيع.

♦ ♦ ♦

كانت دعوة الشيخ رحمه الله تعالى ذات مساحةٍ عريضة جدًّا في اهتماماتها ومجالاتها، ولئن اختار الشيخ أن يكون مقرُّها مسجد منطقتِه التي بها يقيم ويسكن، إلاَّ أنَّه لم يكن يتأخَّر عن السفر والرحلة في الدَّعوة إلى محافظات مصر المختلفة، وكان يَستخدم في الدعوة أيضًا وسائل عرفَته الجماهيرُ العريضة من خلالها؛ فقد شارك في العمل الإذاعيّ من خلال بعض برامج إذاعة القرآن الكريم، وفي العمل الصحفي ببعض المقالات الصحفيَّة، كما شارك في بعض الحلقات التليفزيونيَّة والقنوات الفضائية التي سجَّل من خلالها حلقات برامجه الرائعة: "وقفة مع آية"، و"هنا نزلَت" وغيرها، إلى جانب مشاركاته في "فتاوى النَّاس".

ولا تزال أعمال الشيخ الدعويَّة المتميّزة نبراسًا يضِيء الطريقَ أمام الدُّعاة وطلاب العلم، في رحاب القرآن الكريم والسنَّة النبوية كـ "سلسلة مقاصد سور القرآن الكريم"، و"سلسلة التفسير المجمل"، و"سلسلة أضواء البيان"، و"سلسلة قصص قرآنية"، و"سلسلة آيات وأحاديث"، و"سلسلة بناء الفرد المسلم"؛ إلى آخر الأعمال الصوتيَّة والمرئيَّة في الخطب العامَّة؛ في الفقه والعقيدة، وهموم الأمَّة ومعايشة الواقع، وغيرها، وهي معروفة متوفِّرة.

وللشيخ - نوَّر الله ضريحَه - مصحفٌ مرتَّلٌ، وهو موجودٌ في موقع طريق الإسلام وموقِعه الخاص وأماكن أخرى من الشَّبكة العالمية، وقد رُزق جمال الصوت في التلاوة، مع ما منَّ الله به عليه من علمٍ زاده تدبُّرًا لما يَقرأ.

♦ ♦ ♦

عرفَت المكتبةُ الإسلاميَّةُ الشيخَ الدكتور "عبدالبديع أبو هاشم" رحمه الله كاتبًا وباحثًا متميّزًا من خلال مؤلَّفاته "مبادئ علوم القرآن"، و"سحر البيان في أسلوب القرآن"، و"تفسير سورة الممتحنة تحليليًّا"، و"إمتاع الجنان بعلوم القرآن"، و"من آداب الأسرة والمجتمع في القرآن الكريم من خلال سورتَي النور والتحريم"، و"تفسير سورة النازعات تحليليًّا".

وهناك كثير من أعمال الشيخ الدعويَّة يصلح للجمع والنشر، لو يقوم عليها بعض محبِّي الشيخ وطلاَّبه، أو الغيورين على الدِّين، فيخرجها للنَّاس، لم يكن عملاً قليلاً عند اللهِ ومحبِّي الشيخ وخدمة الدعوة.

والشيخ وجهودُه في مجال الدَّعوة بعامَّة يصلح - بجدارة - أن يكون موضِع دِراسة أحد الباحثين في رسالة التخصُّص أو العالميَّة، يسَّر الله لهذا الموضوع من يتبنَّاه ليفيد من تجربته أجيالَ الدعوة عامَّة، وأهل التفسير خاصَّة.

كانت للشيخ رحمه الله عناية بعامَّة العلوم يدرِّسها ويشرحها وييسِّرها، ولعلَّ سلسلة الكتب التي عزم على إخراجها لعامَّة القرَّاء عن "مبادئ العلوم" خيرُ دليل على ذلك؛ إذ أراد بها تسهيلَ تناول العلوم الإسلاميَّة على عموم القرَّاء، وتقريب الثَّقافة الإسلاميَّة والعلوم الشرعيَّة المتخصِّصة إلى غير المتخصصين.

وقد أنفذ الشيخُ من هذه السلسلة إلى المكتبة: كتابَه الأول منها: "مبادئ علوم القرآن"، وكان انتهى من كتابين آخرين فيها، هما: "مبادئ علوم الحديث"، و"مبادئ علم التجويد"، ولعلَّهما لحقا بأخيهما.

♦ ♦ ♦

لقد كان لتخصُّص "فضيلة الشيخ الدكتور" رحمه الله في التفسير - أكاديميًّا - أثرٌ طبَع مشاركاته الدعويَّة بطابع القرآن في كلِّ مناسبة وآنٍ؛ في خُطبه ودروسه ودوراته ومحاضراته وحلقاته الإذاعيَّة والفضائية.

فالشيخ يتناول "مقاصد القرآن الكريم" على المنبر؛ سورةً سورةً، من أوَّله إلى آخره.

ويتناول التفسيرَ الموضوعيَّ للقرآن الكريم في "سلسلة التفسير المجمل" دروسًا؛ ليعرِّف مستمعيه بما يحويه كلُّ جزء من أجزاء القرآن الكريم يتلوه في صلاة التراويح في رمضان.

ويقف في برنامج "تلفازيٍّ" مع آيات هي من جَوامع الكلِم في القرآن الكريم، يهدف من ورائها إلى ترسيخ مَفهوم، أو تصحيح تصوُّر، أو بِناء سلوك، في سلسلته: "وقفة مع آية".

ويقرِّب علمَ أسباب النزول إلى النَّاس؛ ليعيشوا أحوالَ الصحابة وقتَ نزول القرآن الكريم، ويتعرَّفوا على العصر والظرف الذي نزل فيه، من خلال برنامجه: "هنا نزلت".

ويقدِّم القرآن للنَّاس علاجًا ربَّانيًّا، وشفاءً إلهيًّا، من خلال خطبه: "سلسلة الاستشفاء بالقرآن".

وهكذا ارتبط الشيخُ بالقرآن؛ فأفنى رحمه الله عمرَه كلَّه في خِدمة كتاب الله تعليمًا وتفهيمًا وتربيةً للنَّاس عليه، وكان مثالاً للدَّأب في ذلك، والحرص عليه بكلِّ ما آتاه الله من قوَّة، فكان لذلك عظيم الأثر في توثيق صِلَة المستمعين إليه - وهم كُثر - بالقرآن الكريم حفظًا وتدبُّرًا، مع الإشارة إلى كافَّة العلوم من خلال إشارات القرآن الكريم المحيطة بكلِّ شيء؛ ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: 38]، وكان في ذلك مفسِّرًا على طراز الأوَّلين، ولا غرو؛ فقد كان أوَّل تفسير وقع له وأفاد منه في قراءته الأوليَّة ثمَّ في خطبه وكلماتِه الأولى هو "تفسير الحافظ ابن كثير"، مع ربطه مشكلات العصر بحلول القرآن، وتوقِيع النصوص على الأحوال، مع تقريبٍ للأفهام وضربٍ للأمثال، في منهجٍ سلفيٍّ وأسلوبٍ عصريٍّ، كان له عظيم الأثر في سامعيه، وترك بصمته فيهم؛ فاللهمَّ احشُره مع الصدِّيقين والنبيِّين والشهداء والصالحين، وحَسُن أولئك رفيقًا، واجعله من أهلك وخاصَّتك.

♦ ♦ ♦

كان "فضيلة الشيخ الدكتور" ذا مواهب متعدِّدة، وممَّا لا يَعرفه عنه كثيرون أنَّه ذو تجربة في الشِّعر؛ أَحبَّه، وأنشده، وحاول قَرْضه، لكن على طريقة العلماء، وقد قرأتُ له قصيدةً تفيض رِقَّةً ولهفة إلى والديه اللذين سافرا وتركاه، قالها إثر سفر والده - معارًا إلى المملكة العربيَّة السعوديَّة - ومعه والدتُه، وكان ذلك في حقبة السبعينيات وللشيخ وقتئذٍ (18) سنةً فقط، وكان في الصفِّ الثالث الثانوي، فشَعر الشيخُ رحمه الله بالوحدة وهو الذي تعوَّد على الأُنس بهم طَوالَ حياته، لا سيَّما وقد كان جميع إخوته متزوِّجين إلاَّ هو؛ لصغر سنِّه كما أسلفتُ، فأنشد قائلاً:

ولّيتَ مدبرًا وتركتَني وحيدًا ... أعاني من وحدتي ما أعاني

أعيش في وجودي فريدًا ... لا أنيس ولا حبيب يلقاني

إلى آخر القصيدة، وهي كما قلتُ: من محاولات البداية وأيام الشباب، ولا أدري إذا كان للشيخ رحمه الله محاولات وقصائد أخرى أم لا؟ لا أدري.

♦ ♦ ♦

هكذا عاش فضيلةُ شيخنا الدكتور عبدالبديع أبو هاشم رحمه الله تعالى مع الدَّعوة ولها، في رِحاب القرآن الكريم وبه، فأفنى فيهما وبِهما حياتَه، وكما قيل - بحقٍّ -: "مَن عاش على شيءٍ مات عليه"، "مصادر الحياة - أي: ما يُصدره الإنسان طوال حياته - هي موارد الوفاة"، فكانَت موتة الشيخ مع الدَّعوة كما عاش حياته مع الدَّعوة؛ ففي يوم الجمعة 26 جمادى الأولى لعام 1432 هـ الموافق 29/ 4/ 2011 م خطَب الشيخُ المفوَّه الجمعةَ في مسجد من مساجد الدعوة بمحافظة "بور سعيد"، ودخل في غَيبوبة، نُقل على إثرها إلى المستشفى، ولم يفِق من غيبوبته إلى الجمعة التي بعدَها، وفيها توفِّي رحمه الله، وكان ذلك يوم الجمعة 3 من جمادى الآخرة لعام 1432 هـ الموافق 6/ 5/ 2011.

ليرحل قَمرٌ من أقمار الدَّعوة وداعيةٌ من أهل السنَّة، تبكيه المنابرُ وروَّادها، وتسأل اللهَ فيه العِوَض، رحمه الله تعالى رحمةً واسعة، وأسكنه فسيحَ جناته، فلله درُّه من مبارك؛ كم كان رحيمًا، وكم كان عَطوفًا، وكم كان خَلوقًا، وكم كان وفيًّا، صاحب حالٍ مع ربِّه؛ كما يشهد به المقرَّبون، مجاب الدُّعاء عن قريب؛ حتى إنَّه ليصرّح بذلك لبعض خاصَّته - ابنه الشيخ محمد - فيقول: "ما تمنيتُ شيئًا على الله تعالى إلاَّ وقد حقَّقه لي، وأخشى أن تكون هذه طيباتي عُجِّلَت لي في حياتي الدنيا"، وكم كان رفيقًا بطلاَّبه، حتى إنَّه ليسافر إلى بعضهم في بلده أو قريبًا منها حتى لا يشقَّ عليه، وذلك أثناء متابعة الطالِب لرسالة الماجستير أو الدكتوراه، ومن دلائل ذلك - وكفى به من دليل - جنازتُه، فقد كانت عزَّة لدين الله، وفخرًا للدَّعوة، ونصرةً للخير، وتتويجًا لمشواره الطويل المبارك في سبيل الله.

أودِّعُكم بدمعاتِ العيونِ ... أودِّعكم وأنتُم لي عيوني

أودِّعكم وفي قلبي لهيبٌ ... تجودُ بهِ من الشَّوقِ شجوني

أراكم ذَاهبين ولن تعودوا ... أكاد أصيح: إخواني خُذوني

فلستُ أطيق عيشًا لا تراكم ... به عينِي وقد فارَقتموني

ألا يا إخوةً في الله كُنتم ... على المأساة لي خيرَ معينِ

وكنتُم في طريق الشوك وردًا ... يفوح شَذاه عطرًا من غصونِ

إذا لم نلتقي في الأرضِ يومًا ... وفرَّق بيننا كأسُ المَنونِ

فموعدنا غدًا في دار خلدٍ ... بها يحيا الحنونُ مع الحنونِ

اللهم اجعل قبرَ شـــيخنا عبدالبديع أبو هاشـــم روضـــةً من رِياض الجنَّة، ومدَّ له في قبره مدًّا، ومتِّعه بالنظَر إلى وجهك الكريم أبدًا.

فـــيـــا ربِّـــي رفـــعـــتُ يـــدي وكـــلِّـــي خـــاضـــعٌ لـــكـــمُ

ألا أدخِـــلْـــه دارَ رضـــــا ك فـــي الـــفـــردوسِ يـــنـــتـــظـــمُ